الفصل الثانى

الدراسات السابقة عن

الجن والكائنات فوق الطبيعية

لقد شغل نفر غير قليل من المستشرقين أنفسهم بهذا الباب الهام من أبواب المعتقدات الشعبية ، على النطاق الاسلامى العام ، أو بالتخصيص على مصر بالذات • فنجد معالجات مفيدة لهذا الموضوع عند وليم لين على سبيل المثال • ولكن رغم الخصوبة الواضحة لمؤلف لين العظيم عن عادات المصريين ومعتقداتهم(١) ، وما شهد له به الدارسون من دقة وشمول فان معالجته لموضوع الجن لم تستهدف اطلاقا الاحاطة بكل عناصر الموضوع سواء خصائص الجن أو أنواعهم أو علاقاتهم المتنوعة بالناس أو دورهم المحدد فى الممارسة السحرية الرسمية • هذا كله علاوة على أنه كان يفتقد المنظور الخاص بالتمييز بين السحر الرسمى والسحر الشعبى(٢) • ولكننا نسجل لوليم لين فضل التنبيه بشكل واضح الى خطورة الاعتقاد فى الجن وأهميته بين المعتقدات الشعبية المصرية بوجه عام •

أما مؤلفات مس بلاكمان(٣) ومقال الجن فى دائرة المعارف

---

(١) انظر وليم لين ، المصريون المحدثون ، شمائلهم وعاداتهم (الترجمة العربية بقلم عدلى طاهر نور) القاهرة ١٩٥٠ ، ص ١٥٩ .

(٢) ارجع الى مقالنا : « السحر الرسمى والسحر الشعبى . نظرة جديدة الى التراث السحرى فى المجتمع المصرى المعاصر » ، المجلة الاجتماعية القومية ، العدد الثانى من المجلد السابع ، مايو ١٩٧٠ .

(٣) W. Blackman; The Fellahin of Upper-Egypt; London; 1927. p. 195.

الاسلامية(٤) ، وكريس(٥) • وغيرها فلا تتضمن سوى اشارات وجزئيات من الموضوع • ولم تستهدف أى منها الاحاطة بكافة جوانب الموضوع • هذا الى أن الكثير منها (وخاصة مؤلفى أحمد أمين وكريس) قد اعتمد اعتمادا كليا على دراسات وتجميعات سابقة (أساسا لين وفينكلر) ولا يتضمن أى اضافة حقيقية الى معلوماتنا عن الموضوع أو اتجاهات جديدة لدراسته •

وان كنا ننبه هنا الى أن مؤلف كريس الضخم الحديث قد تضمن — بحكم تحديده لمجال دراسته — اشارات وشواهد مفيدة عن الاعتقاد فى الجن فى بلاد عربية واسلامية عدا مصر ، فكان من هذه الناحية متميزا بشكل واضح عن بقية كتابات هذه المجموعة •

أما الدراسة الجديرة بالمناقشة هنا فهى كتاب هانز فينكلر عن « أرواح الموتى التى تلبس الناس » • فهى مونوجرافية تتميز بالاصالة والعمق وصواب الفهم • ولكن مع مراعاة انها تتناول — كما هو واضح من عنوانها — جانبا واحدا من جوانب الموضوع ، دون ما اشارة الى الانواع والصور العديدة للجن فى المعتقد الشعبى (على نحو ما فصلنا القول فى الفصل الرابع من هذا الباب) • الى جانب ذلك فاننا نجد طائفة من الملاحظات المفيدة المتناثرة فى كتابه الرائد « الفولكلور المصرى » •

وقد عمد فينكلر فى هذا الكتاب الرائد الى أداة منهجية جديدة سعيا وراء مزيد من الدقة والوضوح فى تسجيل مختلف عناصر التراث الشعبى،

---

(٤) قارن مقال « ملاك » فى دائرة المعارف الاسلامية
Enzyklopaedia des Islam (4 Bde) Leiden; 1913 ff; Art. «Malak».

(٥) انظر رودلف وهاينريش كريس : « المعتقدات الشعبية فى البلاد الاسلامية »
Kriss; R. und Kriss-Heinrich; H. : Volksglaube im Bereich des Islam; 2 Bds; Wiesbaden; 1960-1962; II; p. 15.

والمعتقدات بالذات • اذ طلب من خادمه « عبده » الذى حكى له انه شاهد عفريتا أن يرسم صورة لهذا العفريت الذى رآه • ولنا فى هذا الصدد ملاحظة على استخدام الصور فى جمع ودراسة المعتقدات الشعبية على وجه الخصوص نستأذن القارىء فى عرضها لما لها من أهمية منهجية فى ميدان الدراسة الذى مازال بكرا فى بلادنا محتاجا الى توفير أقصى درجات الدقة والوضوح كى يخطو على هدى(٦) • استخدم فينكلر هنا طريقة من طرق الاستعانة بالفن التلقائى من أجل مزيد من استكشاف أبعاد تصور فرد معين عن عفريت عرض له فى أحد الليالى • ولا اعتراض على هذا الاسلوب لو أن المبحوث كان من مجيدى التعبير بالرسم • ففى هذه الحالة يكون تعبيره بالرسم تدعيما وتوضيحا واستكمالا لتعبيره بالكلمة عن التصور الذى يريد الكلام عنه • ولكن أما ونحن بصدد أميين أو أشباه أميين فان الابعاد والالوان والاحجام ••• الخ من وسائل التعبير بالرسم تكون ذات دلالات نفسية أخرى (يسأل عنها رجال التحليل النفسى وعلم النفس الاكلينكى) ولا تصبح مرادفا للتعبير بالكلمة الذى يمكن للمبحوث أن يقدمه لنا •

والفارق الهام هنا هو أن دلالات الالفاظ (وهى الصورة التى أخذ المبحوث المعتقد من خلالها) أكثر تحديدا وانضباطا من دلالات الصور أو الرسوم بأبعادها ورموزها • فهذه التعبيرات التصويرية ليست جزءا موضوعيا — ان جاز التعبير — من ثقافة المبحوث ، وبالتالى فليست لها تلك الدلالة المحددة والموضوعية التى نبحث عنها • وانما هى كما قلنا ذات دلالة نفسية أكثر •

والاصوب — ان صحت هذه المقدمات — أن يصور الباحث تلك

---

(٦) انظر Hans Winkler; Aegyptische Volkskunde; Stuttgart; 1936; p. 234.

وكذلك الرسوم فى ملحق الصور بالكتاب .

السمات التى أفضى بها المبحـوث ـ للعفـريت مثلا ـ على الورق ثم يعرضها عليه ليقول فيها رأيه ، ويدخل عليها ما يراه من تعديلات • وان كان يخشى فى تلك الحالة أيضا أن توحى اليه هذه الصـورة التى أعـدها الباحث بايحاءات لم تكن تخطر على باله فى البداية • (ولنذكر هنا مثلا تردد « عبده » ـ خادم فينكلر ـ الذى رسم للعفريت صورتين ، وفضل أحدهما على الاخرى • اعتبر الاولى بروفة للثانية ، برغم ما بينهما من خلاف ، أنظر صفحة ١٣٤ من كتاب الفولكلور المصرى) •

من هذا نخلص الى أن تعبير المبحوث عن تصوره بالكلام أقرب الى الافصاح عن المعتقد الشعبى الموجود فى ذهن أكبر عدد من الناس ، فتلك هى الصورة التى أخذ بها المبحوث المعتقد ، ودلالة الكلمات أوضح وأكثر تحديدا من دلالة الصور لغير الخبير بالرسم •

ومن الدراسات الطريفة الهـامة دراسـة كونستانس بادويك عن « ملاحظات عن الجن والغول فى تصور فلاحى جنوب الدلتا »(٧) • وقد أورد بادويك نصوص بعض حكايات عن الجن والغـول جمعها من أفواه بعض فلاحى المنوفية • ومن أبرز الاسهامات التى قدمها بادويك فى مقاله مقارنة لصورة الجن فى قصص ألف ليلة وصورتهم عنـد فلاحى المنوفية الذين جمع منهم الحكايات • وقد أجرى تلك المقارنة فى ثنايا استعراضه لتأثير الليالى على تصور الفلاحين عن الجن • اذ يتصف الجن فى حكايات ألف ليلة بالصورة الحضرية وبصورة شخصية فردية متميزة ، على حين تتصف شخصيات الجن فى حكايات الفـلاحين التى جمعها بادويك بطابع عام لا شخصى ، ليس له اسم محدد ولا سـمات شـخصية ظاهرة ولا تصرفات فردية مميزة • ويحلل بادويك ذلك على النحو التالى :

---

(7) Constace E. Padwick; «Notes on the Jinn and the Choul in the Peasant Mind of Lower Egypt». Illustrated by. transcripts of peasant tales taken from the Lips of the fellahin of the Menufia Provinece; Lower Egypt.» Reprint from Bulletin of the School of Oriental Studies; London; 3; 1923-25; I pp. 421-46.

تتضمن قصص ألف ليلة كما كبيرا جدا من المعلومات عن الجن المؤمنة والجن الكافرة ، أو الجن الطيبة والجن الشريرة ، من حيث أشكال ظهورها للبشر وكيفية اختفائها عن الانظار ، والصيغ والعبارات التى تتلى لتطويعها ، وأعمالها السحرية ، وكيفية تسخيرها لتحقيق أغراض البشر ومنافعهم ، وحبهم ، وحروبهم ••• الخ •

ومن الممكن أن نعثر على بعض أوجه الشبه بين تلك المعلومات والمعتقدات المتعلقة بالجن الشائعة بين الفلاحين • ولكنه ليس من السهل أن نثبت ما اذا كانت معتقدات الفلاحين تلك عن الجن مستعارة من الليالى أو متأثرة بها ، بل ان الامر يبدو بعيد الاحتمال عندما ندقق النظر فى التفاصيل •

ولعل السبب الرئيسى لهذا الاختلاف أن الليالى عمل حضرى بالدرجة الاولى ، نشأ فى المدن ويتداول فى المدن أساسا • اذ نجد شخصيات الليالى تتحرك فى شوارع وقصور وفى أسواق التجار الحضرية • ويلاحظ بادويك أن هؤلاء الشخوص اذا خرجوا من دائرة المدينة ، فانهم لا يصادفون الفلاحين عادة ، وانما يقابل الجن وغيرها من الكائنات فوق الطبيعية والمفاجآت والمغامرات • واذا صادف البطل شخوصا خارج نطاق المدينة فانهم ليسوا فلاحين اطلاقا ، وانما هم صيادون وزراع حدائق وبساتين •

ويبرهن بادويك على حقيقة هامة وهى أن أى درسة مدققة للحكايات التى يتداولها الفلاحون تدلنا على أن الفلاحين لم يتبنوا أبدا حكايات الليالى ، ولم تصبح تراثا متداولا بينهم • وذلك على خلاف أهل المدن ، الذين يسمعونها بدرجة أكبر ، ويرددونها ويحفظونها • ويؤكد أنه ظل يجمع الحكايات من فلاحى الدلتا على امتداد سنوات طويلة من تلك التى يحفظها الفلاحون ويرددونها ، فلم يجد من بينها حكاية واحدة من حكايات الليالى • أما فى القاهرة فان الخدم وأمثالهم ممن دون منهم بعض الحكايات فيعرفون أجزاء من الليالى ، ويحفظونها •

وبرغم ذلك كله ـ فانه على الرغم من أوجه الشبه العديدة بين الافكار الدائرة حول الجن فى الليالى وفى حكايات الفلاحين ، فان المقارنة بينهما تدل على وجود بعض الفروق وأوجه الاختلاف الواضحة • ذلك أن الجن فى الليالى قد وصلوا الى درجة عالية من النمو والتطور تفوق تلك التى بلغها الجن فى حكايات فلاحى الوجه البحرى • وأبرز تلك الفروق أن جن الليالى يتميزون بالحضرية (بالحياة فى المدن) وبالطابع الفردى •

فالفلاح لا يسمى جنيا باسمه ، أى باسم فردى معين • فلا يعرف الفلاح « المارد كشكش » ولا « العفريت دهناش ابن شمهورش الطيار » (فى حكاية قمر الزمان على سبيل المثال) • بل ان بعض الاسماء التى تبدو فردية والتى تطلق على الجن فى حكايات الفلاحين مثل : « جنى الظهر » ، فسوف يتضح لنا بعد الدراسة المدققة أنها أسماء نوعية أى تطلق على نوع برمته ، وليس على فرد بعينه من الجن • فذلك الاسم ـ على سبيل المثال ـ يدل على تلك الجان التى تظهر أثناء النهار • وفى هذا الصدد يشير بادويك الى وصف أحد الفلاحين لخشية وخجل الجن هذه الايام ، حيث يقول ذلك الفلاح : « فى أيام جدى كانت تلك الارض جرداء مقفرة ، وكان بوسعك أن تشاهد فيها نحو ستين عفريت الظهر فى نهار أى يوم من الايام » • كذلك الحال بالنسبة لتسمية « جنى البحر » ، فهو اسم نوعى يدل على طراز من الكائنات البشعة التى تتسبب فى كل حوادث الغرق التى تحدث فى الترع ليلا أو نهارا • كذلك الامر أيضا بالنسبة « لأم الصبيان » فهى فى رأى بادويك ليست اسما لعفريت أو كائن خرافى معين ، ولكنها تدل على كل تلك الارواح أو العفاريت التى تخطف الاطفال أو تهدف الى ايقاع الأذى بهم • فهو اسم وظيفة وليس اسم علم ، شأنها فى ذلك شأن « أم الغيلان » •

ويلفت بادويك فى هذا الصدد نظرنا الى ملاحظة هامة وهى أن افتقار تلك العفاريت الفلاحية الى الطابع الفردى الخاص (فى قصص المنوخية التى جمعها عن العفاريت ، وأوردنا هنا بعضا منها) يدلنا

بوضوح على أنها تنتمى الى مرحلة تاريخية سابقة على قصص الليالى ، ويستدل فى ذلك على ملاحظة من روبرتسون سميث فى كتابه « دين الساميين » يشير فيها الى أننا « نجد فى قصص الليالى الجن مسماه بأسماء فردية ومتميزة بشخصيات متفردة ، على حين نجد فى أساطير العرب القديمة أن الجن الفرد الذى يظهر للانسان ليست له شخصية متميزة أو اسم معين »(٨) • وتدل تلك الملاحظة دلالة واضحة على أن حكايات الجن المتداولة بين فلاحى الدلتا أقرب الى مثيلاتها التى كانت متداولة قبل ظهور الاسلام(٩) •

يتبقى بعد ذلك أن نشير الى دراسة جامعة لموضوع الجن أخرجها المستشرق السويسرى الالمانى أرنست تسبندن المعنونة « الجن فى الاسلام والمعتقدات الشرقية القديمة عن الارواح »(١٠) • ورغم كون هذه الدراسة تمثل أشمل معالجة للموضوع بلغة أجنبية على الاطلاق فانها تعانى من كثير من المثالب التى لا مناص من الاشارة اليها هنا :

١ — تستهدف دراسة تسبندن أصلا استقصاء أصول ومصادر الاعتقاد فى الجن ، أى كون هذا المعتقد العربى الاسلامى بجزئياته يمثل امتدادا للمعتقدات القديمة فى المنطقة من مصرية فرعونية ، وبابلية ، وآشورية •• الخ • وفضلا عن قدم هذا المنطلق من وجهة نظر البحث الاثنولوجى المعاصر ، فان دراستنا هذه لا تستهدف التطرق الى الموضوع

---

(٨) نقلا عن :

Robertson Smith; Religion of the Semites: (London; 1889); Lecture III.

(٩) Padwick; op. cit; pp. 423-428.

(١٠) قارن : ارنست تسبندن : « الجن فى الاسلام ومعتقدات الارواح الشرقية القديمة »

Ernst Zbinden; Die DJinn des Islam und der altorientalische Geisterglaube; Bern; 1963.

بهذه الصيغة • اذ يتعذر معالجة جانب واحد منه هكذا دون التطرق الى جوانب أخرى مركبة معه ومرتبطة به •

٢ — لم تستند دراسة تسبندن الى جهد خاص فى الملاحظة الميدانية أو التجميع ، وهى لا تفعل فى مجال عرض أنواع الجن المختلفة وخصائصها أكثر من استقصاء المنشور فعلا فى المراجع الاوروبية من دراسات أو تجميعات •

٣ — ومن هذا يتضح أنه لم تتوفر لتسبندن فرصة الاطلاع على أمهات كتب التراث التى تمثل مصادر أساسية لهذا الموضوع ككتب الجن (مثل كتاب المرجان فى أحكام الجان) ، وكتب السحر الرسمية وعلى رأسها مجموعة البونى • ومع أن هذه الثغرة ليست وقفا فى الواقع على كتاب تسبندن اذ يشترك معه فيها معظم الدراسات السابقة عليه ، الا أننا خصصناه بذكرها لان دراسته هى أوسع هذه الدراسات وأشملها، وهى التى وقفت نفسها على موضوع الجن •

٤ — يتضح من معالجة تسبندن بشكل عام عدم تمكنه من ناصية اللغة العربية ، وهو ما يدعونا الى أخذ كثير من تخريجاته بالحذر المطلوب •

٥ — وأخيرا وليس آخرا فان دراسة تسبندن لا تفصل بشكل واضح بين صورة الجن ودورهم فى المعتقد الشعبى ، ومكانتهم فى الممارسة السحرية • أى بين ما هو متداول على ألسنة الناس ومحفوظ فى عقولهم ، وما هو مسطر فى كتب التراث ، وهو مطلب أساسى من مطالب بحثنا هذا •

ولعله ليست بنا حاجة الى التأكيد مجددا على أن دراستنا هذه تلتزم فى خطتها العامة بالتمييز الذى سبق أن بيناه فى موضع سابق بين السحر

الشعبى والسحر الرسمى • فالمعتقدات الدائرة حول الجن ليست كلها من طبيعة واحدة ، ولا هى تنتشر بين كافة الفئات بنفس المعدل • وانما هى من طبائع متعددة ، وينتشر كل نوع منها بين فئة بعينها • أى اننا لو طبقنا هذا الفصل المنهجى الاساسى بين السحر الرسمى والسحر الشعبى على موضوعنا المحدد هنا لقلنا اننا سنتناول الجن فى المعتقد السحرى الشعبى منفصلا عن الجن فى المعتقد السحرى الرسمى • وكما نوهنا من قبل أن جميع الدراسات السابقة ــ أوربية أو عربية ــ لم تنتبه الى هذا الفصل بين نوعى السحر ، فانها جميعا لم تستطع بالضرورة أن تتناول موضوعنا هذا منفصلا بنفس الشكل •

بقيت فى هذه المقدمة ملاحظة أخيرة • قد ينشأ عن استخدام كلمة الجن فى عنوان البحث شىء من الالتباس • ذلك أن الكلمة يمكن ــ كما سيتضح من سياق الدراسة فيما بعد ــ أن تستخدم بمعنيين أحدهما عام والآخر خاص : المعنى العام ــ وهو الذى نأخذ به فى العنوان ــ يغطى عالما كاملا من الكائنات الخرافية فوق الطبيعية ، شريرة كانت أو خيرة ، معينة للبشر فى أعمالهم أو معوقة • انما هى تشترك جميعا فى صفة أساسية كونها من طبيعة مختلفة عن طبيعة الانسان وتخضع فى سلوكها العام لمنطق غير منطق الانسان ••• الخ • وهى بذلك تشمل الجن بالمعنى الخاص (= الفئة الطيبة من الجن) ، والعفاريت ، والشياطين ، والمردة ، والتوابع ، والاسياد ، الى آخر الانواع التى حاولنا حصرها فى الفقرة ثانيا من الفصل الرابع • أما الجن بالمعنى الخاص فهى كما أشرت فئة طيبة من هذا النوع من المخلوقات • وسنزيد هذا التعريف تحديدا فى بداية حديثنا عن الفقرة ثانيا من الفصل الرابع •